شبكة الصومال اليوم للإعلام

حركة الشباب المجاهدين

قراءة في الواقع والمآلات

محمد علي الشيخ

مقدمة

شكل الاغتيال الأمريكي لأمير حركة الشباب المجاهدين؛ أحمد عبد جوذني (أبو الزبير)، حدثا كبيرا في الساحة الصومالية وفي مسار الحراك الجهادي في منطقة شرق أفريقيا، ورغم اتفاق الكل على مفصلية الحدث في مجمل الوضع السياسي والأمني، إلا أن التحليلات الاستشرافية له اختلفت ما بين مقلل لأهميته على مستقبل وقوة التنظيم الجهادي الأصلب في القارة السمراء ومهول منه لدرجة اعتباره بداية النهاية للتنظيم وأول فصول انحساره نهائيا.

نحاول في هذه الورقة الاقتراب من واقع التنظيم تحت إمارة أبي الزبير، والفشل الحكومي في الصراع على كسب قلوب الشعب الصومالي مقارنة بمقاربات الشباب لكسب ذلك الصراع، كما سنمر على طبيعة التدخل الأمريكي ضد التنظيم في الصومال، قبل أن نختم بمآلات حركة الشباب المجاهدين ومستقبلها بعد رحيل أميرها.

حركة الشباب المجاهدين وإمارة أبي الزبير:

إن موقع الصومال الإستراتيجي وإشكالية الصراع الصومالي الإثيوبي التي كانت عاملا من عوامل انهيار الدولة ومغذيا أساسيا للعنف في المنطقة، مثلا رياحا مواتية في الصومال لنشوء تجربة سلفية جهادية كانت الأقوى أثرا في القارة.

لقد تأسست حركة الشباب المجاهدين رسميا كحركة تمثل الأجندة الجهادية العالمية عام 2006 في فترة سيطرة المحاكم الإسلامية على معظم تراب الجنوب الصومالي، رغم جذورها العائدة لمطلع تسعينات القرن المنصرم.

ويمكننا تلخيص أهم المنعطفات في مسيرة حركة الشباب بشكل عام تحت إمارة أبي الزبير في الخط الزمني التالي:

2008: التصنيف الأمريكي لها كحركة إرهابية؛ وما ترتب على ذلك من وضع قياداتها في قوائم المطلوبين دوليا، والتضييق على موارد تمويلها الخارجية ومطاردة خلايا التجنيد وجمع التبرعات التابعة أو المناصرة لها في الغرب، إلى جانب مطاردة قادتها بالقصف الجوي.

2009: المفاصلة والصدام مع الجبهات والتنظيمات الأخرى المشاركة في المقاومة المسلحة ضد التدخل الإثيوبي الداعم للحكومة الإنتقالية. الصدام الذي أتى كنتيجة حتمية لطبيعة الحركة ومنهجها القاعدي الرافض قطعا لأي مسار تفاوضي سياسي، فقد توصل تحالف إعادة تحرير الصومال بقيادة شريف شيخ أحمد لتسوية سياسية، ما كان كفيلا بوضعه في عيون الشباب موضع الحكومة السابقة، ونتيجة لشعبية تحالف إعادة تحرير الصومال وقوته العسكرية الهائلة فقد ذهبت معظم التحليلات إلى أن التنظيم بالصدام معه يتركب عملية انتحار لتضاؤل قوته وشعبيته أمام التحالف.

ومهما كانت ظروف اندلاع المواجهة بين الطرفين؛ إلا أنها بدأت وانتهت بسحق القوات الموالية لشريف، وحشرهم مع الحكومة على شريط ضيق في مقديشو.

2009-2011: مرحلة تمكين جزئي؛ بدأت بإنشاء خطوط مواجهة ثابتة للحركة في مواجهة قوات الحكومة والقوات الإفريقية الداعمة لها، إيذانا ببدأ شن حرب مدن أقرب إلى النمط النظامي.

وقد شهدت تلك المرحلة شن الحركة لحملات عسكرية بغية التمدد وتضييق الخناق على الحكومة، إلى جانب إنشاء نظام إداري للمناطق الواقعة تحت سيطرتها (جل وسط وجنوب البلاد)، نظام تضمن حسبةً ومحاكم شرعية ومكاتب دعوية ومكاتب للزكوات وغيرها، بما يمكننا اعتباره خروجا مؤقتا من مرحلة النكاية والإنهاك إلى مرحلة إدارة التوحش وإنشاء سلطة بديلة.

2011: هذه المرحلة التي بدأت بانسحاب من دفاعات العاصمة وإعلان عن تغيير في الاستراتيجية بعد تكثيف عمليات القوات الإفريقية، وتميزت بانتهاء تدريجي للسيطرة الحقيقية على معظم المدن فيما بدا انحسارا وأفولا لنجم الحركة، حيث تتابع سقوط المعاقل مع التمدد العسكري الأجنبي والإداري الحكومي، بالتزامن مع تحويل الحركة لجيشها إلى مجموعات شبه مستقلة تشن حرب عصابات بالتوازي مع إرساء أكبر لوجودها الأمني المتجذر في العاصمة والمراكز السكانية.

2012: إعلان أبو الزبير مبايعته للدكتور أيمن الظواهري وانضمام حركة الشباب للقاعدة، الخطوة التي مثلت ترسيخا أكبر للطبيعة المعولمة للتنظيم والتي كان قد تأسس عليها منذ البداية.

وخلال الفترة الأخيرة مرت حركة الشباب المجاهدين بأعنف نزاع داخلي خلال السنوات الأخيرة، تزامن ظهوره الحاد للعلن مع اشتداد وطيس الحملات العسكرية والإعلامية عليها، وقد سلط أبو الزبير أجهزته الأمنية والإعلامية ضد معارضي سياساته في الحركة رغم مكانة بعضهم المرموقة في الوسط الجهادي المحلي والعالمي، وقضى على خصومه في حملة تصفيات، نجح في نهايتها بإبقاء التنظيم موحدا تحت سيطرته ليخسر مراقبون كثر رهانهم على انهيار التنظيم نتيجة تزامن الحملة الخارجية مع النزاع الداخلي.

وبالنظر إلى مراحل الخط الزمني لمسار الحركة، فإنه لا يبدو في المنظور القريب أن حركة الشباب المجاهدين ستتأثر جذريا بسبب رحيل عرابها، ربما وقبل أي شيئ لأن الحركة جذرت نفسها في الساحة الصومالية وبنت لها تحت قيادته جسدا متغلغلا في البنية المجتمعية سواء في البيئة العشائرية الريفية أو في البيئة الحضرية، جسد يتمتع بآلية تجنيد وطرق تمويل أكثر تعقيدا من أي وقت مضى، وربما تمثل مقديشو أنصع مثال على ذلك.

فبرغم إنهاء وجود حركة الشباب فيها عسكريا عام 2011 فإن خلاياها الأمنية تنشط في كل مناطقها من دون استثناء، وتنفذ عمليات الاغتيال لمسئولين وضباط حكوميين، بالتوازي مع توجيه ضربات نوعية بشكل دوري ضد أكثر المقار الحكومية حساسية، في حين تشن مجموعات أخرى غارات ليلة على نقاط وثكنات الجيش والشرطة، كل ذلك رغم كل العمليات الأمنية التي تقوم بها أجهزة الأمن الصومالية والقوات الأفريقية بل والقوات الخاصة الغربية.

استغلال ورقة الشارع، الإخفاق الرسمي ونجاح الشباب:

يرتبط ظهور التنظيمات الجهادية العالمية في كل الحالات تقريبا بحالة احتقان شعبية ضد وضع معين، ولم تكن الصومال استثناء من تلك القاعدة.

فقد تزامن ظهور الحراك الجهادي العالمي فيه مع تداعيات مشروع إدارة بوش ضد ما أسمته الإرهاب وما ارتبط به من ضرب لتجربتين محليتين متعاقبتين؛ إحداهما مبادرة عرتا السياسية، وثانيهما تجربة المحاكم الإسلامية، وذلك عبر الدفع بأمراء الحرب ليشنوا حرب أمريكا بالوكالة، الأحداث التي تطورت إلى اجتياح الإثيوبي كامل للبلاد منحت الحراك السلفي الجهادي شعبية لا مثيل لها في الساحة.

وقد حصلت الحكومة الصومالية على فرصة كبيرة مع إنهاء الوجود العسكري الإثيوبي عام 2009 وانهيار شعبية حركة الشباب جراء عملياتها التفجيرية التي غالبا ما توقع خسائر في صفوف المدنيين، لكن تلك الفرصة ضاعت بسبب الفشل الحكومة في تحسين مستوى أداءها ونزاهتها بشكل عام، وفي لجم عناصر جيشها من ممارسة الإنتهاكات ضد المواطنين في المحافظات التي تمت السيطرة عليها مؤخرا.

وقد امتزج ذلك مع حالة الاستقرار النسبية التي تعيشها المناطق الواقعة تحت سيطرة الشباب، إلى جانب استثمارهم في كسب الحواضن عبر تقديم خدمات تحسن من أوضاع سكان تلك المناطق المعيشية، وعبر اللعب على ورقة المقارنة مع خصومهم في الحكومة والقوات الأجنبية.

وتمخض عن ذلك تحييد الشارع الصومالي عن المعركة بين الشباب والحكومة، بحيث لم يعد يرى أن معركة الحكومة والقوات الإفريقية ضد حركة الشباب هي معركته؛ نتيجة أداء الحكومة السيئ وفشلها المتواصل في حماية حقوق المواطن الأساسية من الانتهاك الممنهج.

حرب أمريكا على حركة الشباب:

ورغم غياب التورط العسكري المباشر والمكشوف، عدا ما خص قصف واغتيال عناصر القاعدة المطلوبين لأمريكا في أحداث السفارات والمرتبطين بهم، إلا أن جذور الحرب الأمريكية ضد حركة الشباب المجاهدين تعود إلى بداية الألفية حيث عملت بالتعاون مع حلفاء محليين وإقليميين على ضرب الوجود الجهادي.

وقد تصاعد الزخم الأمريكي طرديا مع تصاعد نشاط حركة الشباب وتهديدها لمصالحها الذي كان ولا زال على مسارين:

الأول؛ تهديد مصالحها الإستراتيجية في منطقة القرن الإفريقي عموما، من قبل الجهاديين الذي اتخذوا من فراغ السلطة في الصومال قاعدة للانطلاق أو لترتيب الأوراق، هذا من جهة. ومن جهة أخرى؛ تهديد على وجود الحكومة الصومالية واستقرارها، والتي يعتبر وجودها أهم ضامن للمصالح الأمريكية.

الثاني؛ خطر داخلي يتمثل في تطوع شباب أمريكيين للقتال في صفوف الحركة، متأثرين بالمواد المرئية والبروباجندا التي تنشر على مواقع الإنترنت الجهادية، بما يمثل تهديدا محتملا للأمن القومي الأمريكي.

وقد زادت مخاوف السلطات الأمريكية بعد تركيز الجهاز الدعائي في الحركة على استهداف الجاليات المسلمة في الغرب، وازدياد الهواجس من احتمالية عودتهم بعد اكتساب خبرات كافية لشن هجمات داخل بلدانهم.

كما وأن ازدياد زخم التدخل الأمريكي السياسي والأمني يأتي في وقت تشهد فيه الصومال صراعا دوليا على النفوذ فيها، تشارك فيه دول قوية عالميا وإقليميا كتركيا والإمارات وإثيوبيا وغيرها، بما يسمح لنا بإدراج الوجود الأمريكي المتعاظم ضمن سياق تثبيت موطئ قدم لها في البلاد، خصوصا مع افتتاح وشيك للسفارة الأمريكية، ومشاركتهم البارزة في بناء المؤسسات العسكرية والأمنية الصومالية بل واستحواذهم على بناء وتدريب بعض الأجهزة والوحدات، ودعم قواتها الخاصة لعمليات قوات الأميصوم.

وقد أتت ضربة اغتيال أمير الشباب من قبل الطائرات الأمريكية كجزء من هذا السياق، مما دفع بكثير من المراقبين توقع انهيار الحركة، مراهنين على الثقل الأمريكي المتزايد في الحرب ضدها، إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هنا هو "مالذي يجعلنا نراهن على عامل أجنبي (أمريكي بالذات) في إنهاء إشكالية محلية كان هو السبب المباشر في صعودها أصلا؟"

هل نشهد نهاية حركة الشباب؟

إن التنبؤ بمستقبل حركة الشباب المجاهدين لا يستقيم من غير فهم كاف لطبيتعها وبينتها، وإغفال ذلك يعني وقوعا في فخ قصر النظر.

حركة الشباب والسياق الجهادي العام نشأ في البداية كمحصلة لجملة من العوامل أولها إشكالية الصومال الكبير النابعة من قدوم الدولة الحديثة الى المنطقة، والتي من نتائجها – وأسبابها أيضا - الصراع الإثيوبي الصومالي الذي بدوره راكم من المظلوميات والعداوات لتصل إلى أوجها نهاية عام 2006 عندما اجتاح الجيش الإثيوبي الصومال لتدمير تجربة المحاكم الإسلامية، وبين هذا وذاك كانت الحملة الأمريكية على الإرهاب بعد أحداث سبتمبر التي بسعارها أعادت إحياء التيار الجهادي في المنطقة.

كما أن الفشل في تحسين صورة وأداء الحكومة اليوم واستمرار سيناريو الهيمنة الخارجية - رغم تهذيب شكله الذي كان أكثر فجاجة في 2006- 2009 - وبقاء أجهزة الأمن الحكومية على عهدها في استعداء مشاعر المواطنين

والفئة الشابة بشكل خاص، وزيادة عبء الفساد الحكومي على كاهل الشعب، كل ذلك رسخ من الصورة التي طالما روج لها التنظير الجهادي؛ صورة "المجاهد في مواجهة حكومة طاغوت محمية من قبل قوى احتلال أجنبية".

وبعيدا عن ذلك كله؛ فإن حركة الشباب أظهرت قدرا كبيرا من القابلية للتأقلم مع أصعب التحديات منذ تأسيسها وحتى الآن.

هذه الخاصية التي مكنتها من التغلب على معظم الإنتكاسات التي حلت بها، سواء باغتيال قياداتها، أو استعار خلافاتها الداخلية، أو الحملات العسكرية ضدها، ستمكنها اليوم على الأغلب من تجاوز هزة اغتيال أميرها، والذي رغم قيامه بالاستحواذ على مراكز القوة بشكل دموي إلا أنه طور للحركة -عسكريا وأمنيا- نظاما أكثر لامركزية في النشاط والتمويل.

ويزداد الاحتمال أعلاه قوة، مع استمرار وجود أهم العوامل الموضوعية المغذية لنشاط الحركة من سيناريو الهيمنة (الإثيوبية غالبا) والفشل الحكومي أمنيا وشعبيا، إضافة للعوامل الذاتية التي تتمثل في الأداء التنظيمي العالي.

ورغم الدور الذي تلعبه الضربات الأمريكية ضد التنظيم في إيجاعه إلا أنها لن تضعفه على المدى البعيد أو تنهيه؛

أولا لأن الضربات الجوية لم تحسم يوما معركة، وثانيا لأننا أمام تنظيم عقائدي لن يحد من نشاطه تصفية رموزه، وثالثا لأن ضربات أمريكا بالذات ستزيد من إصرار التنظيم على مشروعية مشروعه وترفع من رصيده الجهادي عالميا، بما يسمح له من اجتذاب مزيد من "المهاجرين" وتعاطفا أكبر من أنصار التيار الجهادي الذين تزعزع تصور معظمهم عن التنظيم مؤخراً عن بسبب حملة التصفية الدموية التي طالت معارضي أبي الزبير داخل الحركة.

وتبقى حركة الشباب المجاهدين رقما صعبا في المعادلة الصومالية إلى أمد غير محدد، على الأقل حتى تقويض عوامل إيجادها كليا أو جزئيا وهو ما يبدو اليوم بعيدا كل البعد عن التحقق.